رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء[١] إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أُدُم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارّين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنها الله له « إنا هديناه السبيل[٢] » ، ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجه إلى ما أعد فى الدارين له ، ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرّخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف .

كانت دولتا العالم دولة[٣] الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى

---

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر ، وصرح به المؤلف فى الدرس وكذلك قوله « وإلى نار » وقس على ذلك .

(٢) قال المؤلف فى الدرس : المراد بالسبيل والطريق . فطرة الله التى فطر الناس عليها .

(٣) بيان للكلمة التى استعارها من التاريخ .

قال فى الدرس : وفاتنى وقت الكتابة ذكر دولة الصين فإنها كانت أيضاً ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان .

الغرب – فى تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكه ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظُلَم من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حدّ ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقوّاد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شرَه هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدّ ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض(الإتاوات)حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضُروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها . ولكن بقى لها من قوّة الفكر أرداً بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ،ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب

ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدوّ العقل ، وعدوّ كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يُرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأوّل وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخرُ كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدًّا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا

قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن ، أو تنصلاً من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت رُبُط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمدّه من القوّة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

فى الليلة الثانية[1] عشرة من ربيع الأوّل عام الفيل « ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة ، ولد يتيماً ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال[2] وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك ، وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جدّه عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب ، وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين

---

(١) هذا هو المشهور بين الناس وهو أحد الأقوال وعند المحدثين إنه ولد فى الليلة التاسعة .

(٢) قيل خمس وقيل تسع .

أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهىّ لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوّام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والناس منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاغبون[1] صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أميًّا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أوّل نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[2] ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله :

---

(١) استشهد المؤلف لهذا فى الدرس بقصة اختلاف القبائل فى وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق ، وما كان من إصلاحه بينهم بما أرضاهم جميعاً .

(٢) كأمية بن أبى الصلت وعمرو بن نفيل .

« ووجدك ضالاً فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هى الحيرة تلمّ بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

وجد شيئاً من المال يسدّ حاجته ، « وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم تَرُقْهُ الدنيا ولم تغرّه زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن * زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشرّ الذى تولاه — إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى[1] ، وتجلى عليه النور القدسى ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس

---

* كلما تقدم به السن .

(١) أى من غير شعور منه وهذا يدحض ما يقال بأنه كان يستشرق للنبوة ، قال تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » .

قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته ، فقال : هى أن ترد إلىّ مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ! فأجابه : أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام ، وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش ، فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حالة من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع مُلكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الكتاب لا شهرة فى الخطاب ،لاشىء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة ، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب * لإرشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل وإحياء الرمم ؟ ما كان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد

* انتدب نفسه .

من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية تنصره فى عمله ، وتمدّه فى الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله ، ما هو إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحى السماوى* قام لديه مقام القائد والجندى ، أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ودهرية وزندقة ؟

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان وردّ كل شىء فى الوجود إليه ، أهاب بالطبيعيين ليمدّوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سرّ الوجود الذى قامت به ، صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، فى الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم ، فى هياكل أجسادهم .

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى ، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنيسة أصغر المعتقدين بهم[٢] وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل

---

* ما هو إلا الوعد السماوى .

(١) أى نسبة العبد إلى الرب ، والمخلوق العاجز إلى الخالق القادر ص ١٠٣٩ ج ١ تاريخ الأستاذ الإمام .

ذى نفس إنسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة .

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم* دون الأمل ، مال على قرّاء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكّت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدّد النكير على المحرّفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم .

ولفت** كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر ، وشرّفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع ، والحاجة إلى أولئك

---

* وقطعتهم .

** واستلفت كل إنسان .

المصطفين إنما هى * فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده ، وقرّر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوّده العامل هو الإخلاص لله فى العبادة ، والإخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول ولا قوّة ، كل هذا كان منه ، والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عُقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمّى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف !

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ويحوطهم مع

* إنما هو فى معرفة الصفات .

ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته .

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان فى مظنة العجز ؟ ما هذا العلم فى تلك الأميّة ؟ ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب* الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ، ذلك خطاب الله القادر على كل شىء الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أىّ برهان على النبوّة أعظم من هذا ؟ أميّ قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين هبّ لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطليعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره

* حذف ما تحته خط من الطبعة الأولى :

الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبيّ صدّق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوّة بالعمل فيما أعدّت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوّة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ، وآية الحق الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .